الفصل الرابع

التفسير الاقتصادى لظاهرة الصعلكة

١

العرب والتجارة :

عرفت الجزيرة العربية منذ أقدم عصورها النشاط التجارى على صورة واسعة . وقديماً ذكر سترابو « أن كل عربى تاجر »[١] ، وهى عبارة — على الرغم مما فيها من إطلاق وتعميم — تسجل الصدى الذى استقر فى نفس ذلك الرحالة القديم عن بلاد العرب فى أثناء زيارته لها . ويذكر شبرنجر فى جغرافيته القديمة للجزيرة العربية أن تاريخ التجارة الأولى هو تاريخ البخور ، وأرض البخور هى بلاد العرب[٢] . وأول تجار ورد ذكرهم فى التوراة هم العرب[٣] ، ويذكر الباحثون أن العرب كانوا « الواسطة بين قدماء الأوربيين والشرق الأقصى »[٤] ، « وأن البيزنطيين كانوا يعتمدون فى شئونهم التجارية على قوافل البدو التى كانت تحمل لهم الأحجار الكريمة والتوابل من بلاد الهند الغامضة ، والجلود والمعادن والمواد الغريبة والحرير من الصين ، لأجل ثياب أباطرتهم وحظاياهم وكهنتهم ، والعطور من بلاد المجوس ، والبخور من اليمن ، والصمغ من إفريقية ، لأجل كنائسهم وقصورهم »[٥] . وقد كان لخازن العرب من

---

(١) Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 27 = 123; & Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 20 & p. 24.

(٢) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 159.

(٣) Lammens; La Mecque à lavieille de l'Hégire, p. 28 = 124; & Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 24.

وفى سفر حزقيال (الإصحاح ٢٧) حديث عن تجارة العرب .

(٤) جوستاف لوبون : حضارة العرب / ١٠٦ .

(٥) Dermenghem; The Life of Mahomet, pp. 25, 26.

الأهمية ما كان لمخازن البندقية إبان عظمتها[١] ، ومنذ عصور سحيقة والقوافل التجارية النشطة تعمل بين مناطق الإنتاج فى بلاد العرب السعيدة وبين مدن العراق والشام ومصر[٢] .

ويبدو أن هذه الحركة التجارية النشطة التى سالت بقوافلها وديان الصحراء العربية ، حتى جعلت من العرب كما يقول بعض المؤرخين « حملة العالم بين الشرق والغرب »[٣] ، ترجع إلى تلك الظروف التى كانت تسود العالم القديم فى ذلك الوقت ، فقد كان الطريق البحرى بين الشرق والغرب محفوفاً بالأخطار ، فإلى جانب « القراصنة » الذين كانوا يهددون أمنه ، ويقطعون طرقه ، ويأخذون كل سفينة غصباً ، كانت الملاحة نفسها متأخرة ، ولهذا « انحصرت التجارة — بدون استثناء تقريباً — فى البر ، وكانت تلك القارة التى هى الآن أكبر عقبة فى سبيل الحركة التجارية وسيلتها الأساسية الميسرة ، وكانت برارى آسيا الوسطى وجزيرة العرب بحار القدماء ، وكانت قوافل الإبل سفنهم »[٤] .

وكانت التجارة فى أول الأمر فى أيدى اليمنيين ، « فعلى أيديهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار ، وواردات الهند ، إلى الشام ومصر »[٥] ، « وكانت كثرة التجارة مع بلاد العرب الجنوبية تنقل إلى الشام ومصر عن طريق الحجاز »[٦] .

وليس من شك فى أن هذه الحركة التجارية النشطة التى كان يسيطر عليها الجنوبيون ، والتى كانت تتخذ من بلاد الشماليين طريقاً لها ، أوجدت فى نفوس الشماليين رغبة فى الأخذ بهذا الأسلوب من أساليب العيش ، الذى يرونه يدر على أصحابه رزقاً وافراً وثراء عريضاً ، وغرست فى نفوسهم النواة الأولى لحب

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب /١٠٦ .

(٢) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 506.

(٣) Muir; The Life of Mohammad, pp. IXXXIX, XC.

(٤) Ibid., p. XC.

(٥) أحمد أمين : فجر الإسلام ١/١٥ .

(٦) O'Leary; Arabia before Muhammad, pp. 180, 181.

التجارة التى لم تلبث أن خرجت شجرتها إلى الوجود عندما ضعفت الدولة اليمنية وأخذت فى الانحلال . فما كادت القوة الحميرية يدب فيها الوهن فى أثناء القرن الخامس حتى سنحت الفرصة لعرب الحجاز للقبض على زمام الحركة التجارية ، « ويبدو أن هذه التطورات كانت شديدة التدرج ، ولكن الأمر الذى لا ريب فيه هو أنه من قبل أن يبدأ القرن السابع كان طريق الحجاز كله فى أيدى العرب الذين ينزلون فيه ، والذين جعلوا من مكة مركزاً إداريًّا لهم ، يستقبلون فيه البضائع من أيدى اليمنيين ، ثم يحملونها شمالا على حسابهم الخاص إلى أسواق سورية ومصر ، وربما أيضاً إلى فارس ، وإن يكن من المعروف أن جزءاً من التجارة الفارسية كان فى أيدى عرب الحيرة »[١] .

٢

الطرق التجارية :

ولم يكن طريق الحجاز الطريق التجارى الوحيد للقوافل التجارية ، وإنما كانت هناك طرق أخرى . ويقرر الدارسون أن «طرق القوافل ليست مسألة اختيار مطلق»[٢] ، وإنما هى مسألة «تعتمد على طبيعة الصحارى والجبال وموارد المياه»[٣] ، ويلاحظون أن «طرق القوافل فى الجزيرة العربية تتبع عادة مجارى الوديان»[٤] ، وهذا طبيعى لأنها تتجنب به مجاهل الصحراء ، ووعورة الجبال ، وتضمن طرقاً واضحة المعالم ، محددة المسالك ، تكثر فيها نسبيًّا فرص وجود الماء .

وقد عرفت الجزيرة العربية منذ أقدم عصورها طريقين أساسيين للقوافل

---

(١) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 181.

(٢) Muir; The Life of Mohammad, p. XC.

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 103.

(٤) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 22.

التجارية بين طرفيها الشمالى والجنوبى[١]. ويبدأ الطريقان من ظفار التى كانت المركز الأساسى لتجارة البخور التى يعتمد عليها الشطر الأكبر من التجارة العربية، ويجرى الطريقان إلى الشرق والغرب منها، ليتجنبا اختراق تلك الصحراء الرهيبة المعروفة الآن بالربع الخالى.

أما الطريق الشرقى فيمضى متاخماً لقوس عُمانَ الساحلى، متجهاً إلى القطيف على الخليج الفارسى، التى كانت مرفأ تُحمل إليه بضائع الهند، ومن القطيف عن طريق تدْمر إلى فلسطين وصُور بسورية. وليس من شك فى أن هذا الطريق كان الطريق الأساسى الذى تنقل فيه بضائع الهند إلى صنعاء باليمن، ومنها إلى ثغور البحر الأحمر أو إلى الحجاز.

وأما الطريق الغربى فيبدأ من ظفار أيضاً، ثم يسلك وادى حضرموت إلى شَبْوَة فى أقصى طرفه الغربى، حيث يلتقى بطريق فرعى يتصل بعدن، ثم يستمر إلى مأرب، ومنها إلى صنعاء حيث يلتقى مرة أخرى بطريق فرعى يتصل بعدن أيضاً، ومن صنعاء يصعد شمالا محاذياً البحر الأحمر، متجنباً فى الشرق الصحراء المحرقة اللافحة، وفى الغرب المرتفعات الساحلية الوعرة، حتى يدخل الحجاز بين سلسلتى الجبال المتوازيتين التى تقع مكة والطائف بينهما، ويمضى شمالا عن طريق وادى القرى إلى العلا، الثغر الأمامى لديار الأنباط، حيث كان يجرى تبادل البضائع بين العرب الجنوبيين والأنباط، ثم إلى تيماء حيث تتشعب الطرق، فبعضها يتجه شمالا إلى بُصرى وتدمر ودمشق فى سورية، وبعضها إلى مصر عن طريق أيلة وغزة والعريش والطرف الشمالى لشبه جزيرة سيناء، وبعضها إلى بابل عن طريق حائل الذى ينحنى انحناءة واسعة ليتجنب صحراء النفود القاسية.

وإلى جانب هذين الطريقين الأساسيين اللذين يدوران حول صحارى الجزيرة العربية، يوجد طريق ثالث يخترق قلب الجزيرة العربية من مكة فى

---

(١) انظر فى هذين الطريقين:

O'Leary; Arabia before Muhammad, pp. 103-105; & Muir; The Life of Mohammad, p. XC.

انحناءة حول الحد الشمالى للربع الخالى عن طريق الرياض إلى القَطيف على الخليج العربى [١] .

ويبدو أنه كانت هناك طرق أخرى مهمة ، فى الأخبار القديمة أن النعمان كان يبعث بلطيمة كل عام للتجارة إلى عكاظ [٢] ، وأن عرْوة الرّحّال من بنى كلاب أجارها فى بعض الأعوام ، حتى إذا وصل « إلى أهله دُوَينَ الجَرِيب بماء يقال له أوارة» وثب عليه البراض فقتله ، ثم مضى هارباً حتى أتى خيبر [٣] . وهنا نتساءل : أى الطرق كانت تسلكها لطائم النعمان فى قدومها من الحيرة إلى عكاظ ؟

يبدو أن الإجابة عن هذا السؤال تفسرها ظاهرة جغرافية، فهناك واد عظيم يمتد من حرة خيبر التى ترتفع ستة آلاف قدم ، مخترقاً غربىَّ القَصيم بين أبانَيْن حتى يقارب البصرة ، وهو وادى الرُّمة الذى يرجحون أنه كان مجرى نهر فى عصور ما قبل التاريخ [٤] . وقد قلنا إن طرق القوافل فى الجزيرة العربية تتبع مجارى الوديان ، ومن هنا نستطيع أن نرجح أن وادى الرمة هو الطريق الذى كانت تسلكه لطائم النعمان ، ويؤيد هذا أن المواضع التى ورد ذكرها فى قصة عرْوَة الرحّال والبراض تقع فى هذا الوادى، فالجريب واد عظيم لبنى كلاب يصب فى الرمة من أرض نجد [٥] ، ومنازل كلاب حيث قتل عروة تقع فى وسط الرمة أو فى أعاليها [٦] ، وخيبر التى فر إليها البراض تقع كما رأينا عند بداية الرمة . وبهذا نستطيع أن نحدد ذلك الطريق التجارى الذى كان يخترق شمالى الجزيرة العربية ، فهو يبدأ من منطقة الحيرة ثم يمضى مع وادى الرمة

---

(١) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 105.

(٢) انظر فى قصة هذه اللطيمة : الأغانى ١٩ / ٧٥ ، وابن حبيب : المحبر / ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٣) ابن حبيب : المحبر / ١٩٦ .

(٤) The Ency. of Islam; Art. Arabia, p. 371.

وانظر أيضاً معجم البلدان لياقوت ، مادة (الرمة) ٤ / ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ، مادة (الجريب) ٣ / ٩١ .

(٦) المصدر السابق ، مادة (الرمة) ٤ / ٢٩٠ ، ٢٩١ .

حتى يصل إلى خيبر ، ومنها عن طريق وادى القرى إلى يثرب ، ثم إلى مكة فى الطريق الذى يصل بين شمالى الجزيرة العربية وجنوبيها ، ومن مكة إلى عكاظ . وقد أشار زويمر نقلا عن بعض مصادره إلى طريق كان « فى أيدى العرب الإسماعيليين يخترق وادى الرمة وبلاد نجد إلى حاضرة الحميريين القديمة مأرب »[١] ، ولكنه لم يذكر شيئاً عنه أكثر من هذه الإشارة الموجزة . ولعله الطريق الذى حددناه .

٣

الأسواق :

ومن الطبيعى أن تقوم على طول هذه الطرق التجارية ، حيث يوجد الماء ، مجموعة من الأسواق تنزل فيها القوافل التجارية ، ويقبل إليها سكان هذه المناطق والمناطق التى تجاورها بسلعهم ، ويقوم بين الفريقين تبادل تجارى ، ترحل بعده القوافل ببعض ما تنتجه هذه المناطق ، ويعود سكان هذه المناطق ببعض ما كانت تحمله هذه القوافل مما يحتاجون إليه ولا تنتجه بلادهم .

وقد ذكر اليعقوبى من هذه الأسواق عشرا[٢] ، بدأ بها من أقصى الشمال حيث تقام سوق دُومة الجندل ، ثم تتبعها على طول الخليج العربى حيث تقام سوق المشقّر بهجر ، وسوق صُحار ، وسوق دَبى[٣] ، ثم على طول الساحل الجنوبى للجزيرة العربية حيث تقام سوق الشِّحْر بشحر مهرة ، وسوق عدن ، وسوق الرابية بحضرموت ، وسوق صنعاء ، ثم مضى على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر حتى انتهى إلى سوق عكاظ وسوق ذى المجاز بالقرب من مكة ، وقد ذكر ابن حبيب هذه الأسواق أيضاً[٤] ، وأضاف إليها سوقين أخريين :

---

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 260.

(٢) تاريخ اليعقوبى ١/٣١٣ ، ٣١٤ .

(٣) فى المصدر السابق « ريا » ، وهو تحريف ، صوابه ما ذكرناه هنا . (انظر القاموس المحيط ، مادة « دبى » — ومعجم البلدان لياقوت ، مادة « دبا » حـ ٤ ص ٣٠ — والمحبر لابن حبيب / ٢٦٥) .

(٤) المحبر / ٢٦٣ — ٢٦٧ .

سوق حَجْر التى كانت تقام باليمامة ، وسوق نَطَاة التى كانت تقام بخيبر [١] .

ومن الطبيعى أن هذه الأسواق ليست كل ما كانت تعرفه الجزيرة العربية فى جاهليتها ، وقد ذكر ابن حبيب أن هذه الأسواق هى « أسواق العرب المشهورة فى الجاهلية » [٢] ، ومع ذلك فقد عرف العرب الجاهليون أسواقاً أخرى مشهورة ، فقد عرفت منطقة مكة مع سوق عكاظ وذى المجاز سوق مجنة [٣] ، وعرفت منطقة تهامة سوق حباشة التى أرسلت السيدة خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها [٤] ، وفى أخبار الشنفرى أن أعداءه تربصوا له وهو عائد منها [٥] ، وكذلك كانت بدر « موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوق كل عام » [٦] ، وقد عرفت عُمان سوقاً أخرى مشهورة هى سوق « دما » يذكر عنها ياقوت أنها « كانت من أسواق العرب المشهورة » [٧] ، وكذلك كان اليهود يقيمون أسواقاً حيث كانوا ينزلون ، فقد كان لبنى قينقاع سوق فى يثرب ، « وكانت سوقاً عظيمة » ، وقد زارها النابغة الذبيانى مرة ، فلما أشرف عليها سمع بها ضجة حاصَتْ به ناقته منها [٨] ، ويذكر المؤرخون أن أهل مكة كانوا يقصدون إلى خيبر ليجلبوا منها حلى آل أبى الحقيق التى كانت نساؤهم يتحلين بها [٩] . ومن الطبيعى أن تقوم بخيبر ويثرب أسواق ، نظراً لنزول اليهود أصحاب الأموال والتجارة والصناعة فيهما ، وقد « كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز ، حتى صار

(١) المصدر السابق/ ٢٦٨ .

(٢) المصدر نفسه /٢٦٣ .

(٣) انظر معجم البلدان لياقوت مادة (مجنة) ٧/٣٩٠ ، ومادة (عكاظ) ٦/٢٠٣ .

(٤) انظر المصدر السابق مادة (حباشة) ٣/٢٠٦ .

(٥) الأغانى ٢١/١٣٧ .

(٦) تاريخ الطبرى ٢/٢٧٦ والمغازى للواقدى /٣٧ .

(٧) معجم البلدان ٤/٦٩ (مادة دما) .

(٨) الأغانى ٢١/٩٢ .

(٩) الواقدى : المغازى /٢٧٧ .

لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد »[١] ، وكذلك من الطبيعى أن تقوم بمنطقة مكة تلك المجموعة من الأسواق التى ذكرناها نظراً لأنها كانت أكبر مراكز التجارة فى الجزيرة العربية ، ونظراً لكثرة وفود العرب التى كانت تهوى إليها فى مواسم الحج ، وقد كان النعمان يبعث كل عام إلى سوق عكاظ بلطيمة « تباع ، وتشترى له بثمنها الأدُم والحرير والوِكاء والحذاء والبرود من العَصْب والوشى والمُسَيَّر والعَدَنىّ »[٢] .

ونستطيع أن نقرر ، ونحن مطمئنون ، أنه على طول الطرق التجارية كانت تقوم الأسواق ، وأن هذه الأسواق كانت تكثر حول مراكز التجارة الأساسية .

ونستطيع أن نقسم هذه الأسواق إلى مجموعتين : فهناك أسواق تقع فى بلاد فيها هيئة حاكمة ذات قوة تنفيذية ، ترد الظالم عن ظلمه ، وتأخذ لصاحب الحق حقه من غاصبه ، أو — كما كان يسميها القدماء — « أرض مملكة وأمر محكَم » ، وهذه لم يكن التجار فيها يحتاجون إلى حفارة ، لأن القوة التنفيذية فيها كانت تقوم بهذه المهمة ، نظير عشور يحصلونها من التجار ، كسوق عدن[٣] ، وهناك أسواق تقع فى مناطق بدوية لا حكم فيها إلا للقوة الفوضوية ، أو — كما كان يقول القدماء — « من عز فيها بزّ » ، وهذه كان التجار يحتاجون فيها إلى حفارة ، كسوق الرابية بحضرموت[٤] . وكان سادة بعض هذه المناطق ينصّبون أنفسهم حكاماً على أسواقها ، « ويسيرون فيها بسيرة الملوك » ، فيأخذون من التجار فيها العشور ، كما كان يفعل بعض بنى تميم فى سوق المشقر بهجر ، وكما كان يفعل الجلنْدَى وآل الجلنْدَى فى سوق صُحار وفى سوق دَبى[٥] .

---

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب /١٨ .
(٢) الأغانى ١٩/٧٥ .
(٣) ابن حبيب : المحبر /٢٦٦ ، وتاريخ اليعقوبى ١/٣١٤ .
(٤) المصدران السابقان : ابن حبيب /٢٦٧ ، واليعقوبى ١/٣١٤ .
(٥) المصدران السابقان : ابن حبيب /٢٦٥ ، ٢٦٦ ، واليعقوبى ١/٣١٤ .

ومع ذلك فقد كان التجار فى هذه الأسواق عادة آمنين على دمائهم وأموالهم[١] ، فبالرغم من أنه كان فى العرب قوم يستحلون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق ، وكانوا يسمون المحلّين ، كان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم ، والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، وكانوا يسمون الذادة المحرمين[٢] ، وكان هؤلاء الذادة المحرمون « يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس . وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم فى الأشهر الحرم »[٣] ، كما أن بعض هذه الأسواق كانت تقوم بحمايتها القبائلُ التى كانت تقام فى أراضيها ، ويسمون بذلك جيرانها ، فقد كانت كلب وجديلة طيئ جيراناً لسوق دومة الجندل[٤] ، وكانت عبد القيس وتميم جيراناً لسوق المشقر[٥] ، وكان حلف الفضُول يجير فى أسواق مكة[٦] ، وقد وصلت هذه الإجارة فى بعض الأحيان إلى درجة كبيرة من القوة تستطيع بها أن ترد على المظلوم حقه ، بعد أن تنتزعه من غاصبه ، كما كان يفعل الفضُول فى مكة[٧] .

والغاية التى نريد أن نصل إليها من هذا هى أن الفرصة التى كان من المنتظر أن تكون سانحة أمام صعاليك العرب فى هذه الأسواق للغزو والإغارة للسلب والنهب قد أفلتت من أيديهم ، نظراً لتلك الحماية التى كان الذادة المحرمون يأخذون بها أنفسهم ، وهذه الإجارة التى كانت بعض القبائل أو الأحلاف تقوم بها ، ونظراً — من ناحية أخرى — إلى ازدحام هذه الأسواق بالناس من مختلف الطبقات ازدحاماً يفسد على الصعاليك « خططهم الحربية » التى تعتمد قبل كل شىء على التربص الحذر ، ثم المفاجأة الخاطفة ، فالفرار

---

(١) تاريخ اليعقوبى ١ / ٣١٣ .
(٢) المصدر السابق / ٣١٤ .
(٣) المصدر نفسه / ٣١٥ .
(٤) ابن حبيب : المحبر / ٢٦٣ .
(٥) المصدر السابق / ٢٦٥ .
(٦) السهيلى : الروض الأنف ١ / ٩٠ ، ٩١ .
(٧) المصدر السابق ، الموضع نفسه .

السريع من أجل النجاة والسلامة .

ولكنهم — مع ذلك — لم يدعوا هذه الفرصة تفلت من أيديهم إفلاتاً تامًّا ، فما لا يُدرك كله لا يترك كله ، فقد رأوا أن هذه الأسواق مواسم يلتقى فيها ضروب من الناس من شتّى القبائل ، مما يتيح لهم فرصة طيبة للاتصال بهم ، وانتقاء ضحاياهم من بينهم ، ليضعوا على أساس ذلك خططهم المقبلة التى يعتزمون تنفيذها بعد ذلك ، فى أخبار السليك أنه خرج فى الشهر الحرام حتى أتى عكاظ ، فلما اجتمع الناس ألقى ثيابه ثم خرج متفضلا مترجلا ، فجعل يطوف بين الناس ويقول : منْ يصفُ لى منازل قومه وأصف له منازل قومى ؟ فلقيه قيس بن مكشوح المرادى ، فقال : أنا أصف لك منازل قومى ، وصف لى منازل قومك ، فتواقفا وتعاهدا ألا يتكاذبا ، ووصف كل منهما للآخر منازل قومه ، فانطلق قيس إلى قومه فأخبرهم الخبر ، فقال أبوه المكشوح : ثكلتك أمك ! هل تدرى من لقيت ؟ قال : لقيتُ رجلا فُضُلاً كأنما خرج من أهله ، فقال : هو والله سليك بن سعد ، ثم لم يلبث السليك أن وضع خطته موضع التنفيذ ، فأغار فى أصحاب له على مراد وخثعم ، وأسر قيس بن المكشوح ، وأصاب من نعمهم ، وسبى سبية من خثعم ، ثم انصرف مسرعاً[1] ، ويبدو من معرفة المكشوح للسليك بمجرد حديث قيس عنه أن هذا اللون من الاحتيال من « السوابق » التى عرفتها « صحيفة » السليك ، والتى يعرفها عنه أصحاب الخبرة ، كما يعرف رجال الشرطة فى العصر الحديث أرباب السوابق من المحتالين بمجرد ذكر حوادث احتيالهم .

وإذا كانت الفرصة قد أفلتت من صعاليك العرب فى داخل هذه الأسواق ، — ما عدا أمثال هذا الاحتيال — فإن فى الطرق الموصلة إليها ، وفى المناطق المحيطة بها ، متسعاً لحركاتهم ، فوقفوا يترصدُون التجارَ فى مقدَمهم إليها ، وفى منصرفهم عنها ، يقطعون عليهم الطرق ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم من تجاراتهم .

---

(١) الأغانى ١٨ / ١٣٥ ، ١٣٦ .

وهنا نقف لنذكر أننا قلنا عند تعليلنا لانتشار حركات الصعاليك فى منطقة السراة المحيطة بمكة وفى قبيلة هذيل أن للمسألة جانباً اقتصادياً ، وأظن أننا نستطيع الآن أن نقول إن من أسباب انتشار الصعاليك فى هذه المنطقة وقوعها على الطريق التجارى الذى يصل بين اليمن والشام مما جعلها ممرًّا للقوافل التجارية ، هذا إلى أن قربها من مكة حيث تقام ثلاث أسواق مشهورة : عكاظ ومجنة وذو المجاز [١] جعل منها ميداناً نشطاً لحركات التجار فى غدُوّهم ورَوَاحهم ، مما أتاح للمتمردين من صعاليك هذه المنطقة الفرصة المواتية للغارة والغزو للسلب والنهب . ولهذا السبب اضطر التجار فى مناطق هذه الأسواق إلى أن يتخفَّروا بالقبائل القوية التى تنزلها [٢] .

وكان لهذه الأسواق — من ناحية أخرى — أثر فى حياة صعاليك العرب ، ففيها ، أو فى بعضها على الأقل ، كانت تجرى تجارة رائجة ، هى تجارة الرقيق الذى كان يجلب من إفريقية ، وقد رأينا فى الفصل السابق صورة من تلك التجارة فى أسواق مكة ، وفى سوق حباشة كانت تجرى هذه التجارة أيضاً [٣] ، وقد رأينا فى الفصل السابق أن هذه التجارة كانت سبباً فى نشأة طبقة الأغربة فى المجتمع الجاهلى ، وأن هذه الطبقة قد أمدت حركة الصعلكة بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب . وإلى جانب هذا اللون من التجارة ، عرفت هذه الأسواق — أو بتعبير أدق — الأسواق الأساسية لوناً من النشاط الاجتماعى كان له أثر فى حركة الصعلكة ، وهى ظاهرة الخلع ، وقد قلنا فى الفصل السابق إن هذا الخلع كان يتخذ صورة إعلان رسمى يذاع على الناس فى المواسم والأسواق ، ورأينا أن هؤلاء الخلعاء كانوا يمدون حركة الصعلكة أيضاً بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب .

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت ، عكاظ ٦/٢٠٣ ، ومجنة ٧/٣٩٠ ، والمجاز ٧/٣٨٥ .

(٢) انظر المحبر / ٢٦٤ وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبى ١/٣١٤ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة (حباشة) ٣/٢٠٦ . وابن الأثير : أسد الغابة ٢/٢٢٤ .

ومعنى هذا أن هذه الأسواق شهدت السطور الأولى من قصة هاتين الطائفتين من صعاليك العرب : طائفة الأغربة . وطائفة الخلعاء .

٤

الصراع الاقتصادى فى المدن التجارية :

من الطبيعى أن يشارك فى هذه الحركة التجارية النشطة التى عرفتها الجزيرة العربية سكانها ، كلٌّ حَسْبَ طاقته المالية ، وحسب ظروفه الاجتماعية ، وحسب قربه أو بعده عن مراكز النشاط التجارى . ومن الطبيعى أيضاً أن يختلف موقف العرب من هذه الحركة التجارية عن موقف البدو .

أما أولئك العرب الذين تقع مدنهم على الطرق التجارية فقد فرض عليهم موقعهم أن يشاركوا فى هذه الحياة التجارية بكل ما تحتمله رءوس أموالهم .

وقد نشطت الحركة التجارية فى مكة بالذات نشاطاً واسع النطاق ، جعل منها كما يحلو للامانس أن يقول عنها « جمهورية تجارية »[١] ، أو كما يسميها درمنجم « جمهورية بلوتقراطية »[٢] ، تعتمد فى سيادتها على طبقة الأثرياء ؛ أو كما يقول بندلى جوزى « مدنية تجارية محضة لا يفكر أهلها إلا فى التجارة ، ولا يهمهم إلا جمع المال واستثماره بجميع الوسائل المحللة والغير المحللة »[٣] .

ويؤرخون أهمية مكة الحقيقية فى هذا النشاط التجارى بذلك الوقت الذى أصبح فيه عرب الحجاز أصحاب التجارة ، وجعلوا من مكة « مركزاً إداريًّا » لأعمالهم ، أما قبل ذلك ، حينما كانت التجارة فى أيدى اليمنيين ، فإن مكة لم تَعْدُ أن تكون محطة على طريق القوافل ، كما يذكر سترابو[٤] . فقد كانت

---

(١) انظر كتابه : La Mecque à la veille de l'Hégire,
وانظر أيضاً مقالته عن Mecca فى : The Ency. of Islam, p. 438.

(٢) The Life of Mahomet, p. 26.

(٣) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام / ١٤ ، ١٥ .

(٤) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 182.

مكة قبل القرن الخامس الميلادى « محطة للقوافل التى كانت تمر بها وهى راجعة من جنوب الجزيرة تحمل بضائع الهند واليمن إلى سوريا وفلسطين ومصر ؛ فأصبحت فى أواخر الجيل السادس مدينة تجارية غنية تمد بما كان يأتيها من البضائع المحلية والأجنبية أكثر سكان الحجاز وأسواقه »[١] .

وقد سيطر على أهل مكة رُوحٌ تجارى نشط « فاشتعلت فى نفس كل منهم حمّى تدفعه للعمل والمال والمضاربات التجارية ، من التاجر ذى الأريكة الخشبية فى الهواء الطلق ، إلى صاحب الدكان الصغير ، إلى رجل الأعمال الكبير صاحب الكتبة الكثيرين ، الذى تزدان دفاتر حساباته الجارية بالأختام والكتابات الحاذقة »[٢] ، وبلغ من سيطرة هذا الروح التجارى أن كان من ألقاب الشرف فى مكة لقب « تاجر » ، ذلك اللقب الذى كان يخول لصاحبه أن يشارك فى السلطان السياسى [٣] .

وقد أحدث هذا النشاط التجارى نوعاً من الاختلال فى التوازن الاقتصادى ، نشأت عنه طبقة من الصعاليك المعوزين ممن تخلفوا عن القافلة ، ونحّاهم التيار التجارى الجارف جانباً ، حيث يركد الماء ، ويتراكم الغثاء . ويرى بعض الباحثين أن عدد أفراد هذه الطبقة فى مكة كان كبيراً جداً بالنسبة إلى عدد أصحاب الثروة فيها ، وأنهم كانوا فى حالة سيئة « لا يملكون شيئاً حتى أنفسهم ، لأن حق التشريع كان محصوراً فى أيدى الطبقة العليا ، فكان أصحابها يسنون من الشرائع ما كان يوافق مصلحتهم ، ولما لم يكن لأصحاب هذه الطبقة زاجر من أنفسهم ، ولا رادع من ضمائرهم يردعهم عن استثمار أتعاب الصعاليك وامتهانهم ، ويوقفهم عند حد معلوم من القساوة ، كانت حياة الصعاليك بينهم عرضة دائمة للأخطار ، وسلسلة يأس وعذاب ، فلا قانون يحميهم ، ولا شريعة ترق لحالهم ، وتحاول أن تنتشلهم من هاوية الموت الاجتماعى والرق

---

(١) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام /١٣ ، ١٤ .

(٢) Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 29.

(٣) Lammens; La Mecque à la Veille de l'Hégire, p. 165 = 261.

الأبدى ، فكانوا يعيشون فى شعاب البلدة وأطرافها البعيدة ، وفى بيوت حقيرة قذرة ، وعيشة ضنك ، وجوع مستمر ، بينما كان الذين أثروا من أتعابهم يقيمون فى وسط المدينة ، فى قصورهم الفخمة ، بالقرب من الكعبة والنادى ، أو دار الندوة ، مصدرَىْ ثروتهم وسلطتهم »[١] .

وكانت العلاقات بين هاتين الطبقتين : طبقة المالة وطبقة الصعاليك من السوء إلى حد بعيد ، فقد كانت الطبقة الأولى مسيطرة على كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية . وقد رأينا أن حق التشريع كان فى أيديهم . وإلى جانب هذا كانوا هم المسيطرين على الحياة الاقتصادية ، فكانوا يعمدون أحياناً إلى التلاعب بالأسواق ، أو المضاربة بالدراهم والدنانير والتبر والنقود الأجنبية ، « فكانوا تارة يزيدون فى وزنها أو قيمتها ، وطوراً يخفضون ، تبعاً لمصالحهم الشخصية وجرياً وراء جشعهم المعهود »[٢] مما كان يؤدى إلى اختلال التوازن الاقتصادى اختلالا كبيراً ، يكون من نتائجه أن تصبح طبقة الصعاليك تحت رحمتهم ، فيضْطر أفرادها إلى الاستدانة إبقاء على حياتهم . وهنا يعمد المتمولون إلى استغلال هذه الفرصة ، فيقرضونهم ما يطلبون نظير فائدة فاحشة كانت تتراوح بين أربعين فى المائة ومائة فى المائة[٣] . ويبدو أن عدد المرابين فى مكة والمدينة كان كبيراً جداً ، ومعروفٌ أن القرآن الكريم فى سوره المكية والمدنية حمل حملات شعواء على الربا والمرابين[٤] . وإلى جانب هذا الربا الذى كانوا يأكلونه « أضعافاً مضاعفة » كما يقول القرآن الكريم[٥] « كانوا يتلاعبون بالديون بأن يؤخروا آجالها ، أو يقدّموها .

---

(١) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام / ٢٠ ، ٢١ .

(٢) المصدر السابق / ١٩ .

(٣) المصدر السابق / ١٨ ، وفى خزانة الأدب للبغدادى (١ / ٣٤٥ سطر ١١) « اقترض ثمانية آلاف درهم باثنى عشر ألف » ، وفى كتاب المغازى للواقدى (ص ٢١) « مال مع قوم قراض على النصف » .

(٤) البقرة / ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ وهى مدنية ، وآل عمران / ١٣٠ وهى مدنية أيضاً ، والنساء / ١٦١ وهى مدنية أيضاً ، والروم / ٣٩ وهى مكية .

(٥) آل عمران / ١٣٠ .

أو يضيفوا إليها ، إلى غير ذلك من الأعمال التى كانت تؤدى دائماً إلى خراب المستدين واستعباده »[١] . وفى القرآن الكريم إشارة إلى ذلك إذ وقف من هذا التلاعب بالديون موقفاً رائعاً صريحاً نظم فيه الصلة بين الدائن والمدين تنظيماً واضحاً دقيقاً ، ووضع الشروط التى تضمن لكلا الطرفين حقه ، فى آيتين طويلتين من سورة البقرة[٢] ، وكانت هذه الديون تزداد يوماً بعد يوم بما كان يضاف إليها من الربا الفاحش ، مما كان يجعل محاولة سدادها أمراً ميئوساً منه ، « ولهذا لم يكن وقتئذ أمل فى التخلص من أولئك الظلمة بالطرق السلمية إلا فيما ندر ، أما أكثر المدينين فإنهم كانوا مضطرين إما إلى الهرب إلى الصحراء ، والالتحاق بطبقة المتشردين وقطاع الطرق ، وإما أن يدخلوا فى طبقة الأرقاء ، ويقيموا فيها إلى ما شاء الله »[٣] .

ويرجع هذا إلى أن مكة كانت فى الجاهلية — كما هى فى الإسلام — حرماً مقدساً « لا ظلم ولا بغى فيها »[٤] ، نظراً لوجود الكعبة فيها ، هذا إلى جانب أنها مدينة لها نظامها الاجتماعى ، ويقيم سكانها فى منازل ، فهى لهذا ليست بالميدان الصالح لحركات الصعاليك المتمردين . ومن هنا لم يجدوا مفرًّا من الخروج منها إلى البادية الواسعة حيث الحياة فوضى ، ومجال العمل المتمرد متسع ، وحيث طوائف المتشردين وقطاع الطرق وذؤبان الصحراء منتشرة ، فإذا ما ضاقت بهم حياة التصعلك والتشرد ، أو ضاقوا بها ، أو رغبوا فى الراحة منها إلى حين ، فإن طريق العودة إلى مكة ميسر ، فأبواب البلد الحرام مفتوحة لكل لاجئ أو خائف أو طريد ، « من دخله كان آمناً ، ومن أحدث فى غيره من البلدان حدثاً ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله »[٥] . ومن هنا نستطيع أن نفهم السر فى كثرة عدد الخلعاء من شتى القبائل فيها ، واتخاذهم منها مركزاً يلتقون

---

(١) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام /١٩ .
(٢) ٢٨٢ ، ٢٨٣ .
(٣) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام /١٩ ، ٢٠ .
(٤) تاريخ الطبرى ٢/١٩٨ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان (مكة) ٨/١٣٦ .

فيه آمنين على حياتهم من الطلب ، حتى إذا ما حانت ساعة العمل خرجوا منها إلى ميدان كفاحهم ، وقد رأينا فى الفصل السابق صورة لأولئك الخلعاء والفتاك الذين كانوا يجتمعون فى مكة ، حتى إذا ما احتاج إليهم ثائر لغزوة من الغزوات قدم إليهم فيها ، وواعدهم فى الحرم ، ثم خرج بهم جنوداً مرتزقة .

٥

الصراع الاقتصادى فى البادية :

إذا ما تركنا هذه المدن التجارية بطبقاتها الاقتصادية ، وما يدور بينها من صراع ، ومضينا إلى البادية لنتبين موقف أهلها من هذا النشاط التجارى ، فإننا نجد أن موقفهم قد اختلف تبعاً لمواقع قبائلهم ، من حيث قربها من مراكز النشاط التجارى وطرق القوافل أو بعدها عنها .

ومن الطبيعى أن تشارك القبائل التى كانت تنزل على طول الطرق التجارية أو قريباً منها فى هذا النشاط التجارى ، فقد كان مرور القوافل التجارية بهم فرصة تسنح لهم من حين إلى حين ، يستغلونها فى إنعاش حياتهم الاقتصادية ولو لفترة محدودة من الزمن ، فكان بعض الأفراد من الطبقات الفقيرة فى هذه القبائل يعملون لهذه القوافل نظير أجر يتقاضونه ، يعينهم على تكاليف الحياة ، ويساعدهم على موازنة حياتهم الاقتصادية ، وسداد ما عليهم من ديون اضطروا إليها فى أوقات الأزمات التى كانوا كثيراً ما يتعرضون لها ، ويحدثنا الطبرى أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما كان يستعد لغزوة بدر بعث برجلين إلى ماء بدر ليتحسسا له أخبار قريش ، فسمعا جاريتين « تتلازمان على الماء ، والملزومة تقول لصاحبتها : إنما تأتى العيرُ غداً أو بعد غد فأعمل لهم حتى أقضيك الذى لك »[1] .

وليس من شك فى أن هذه القوافل الضخمة فى رحلاتها الطويلة فى مجاهل

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٧٥ — والملازمة : المطالبة بالحق .

الصحراء كانت تحتاج إلى أشياء كثيرة حتى تصل إلى غايتها البعيدة بسلام .

ولعل أول ما كانت تحتاج إليه « الأدلاء » الذين يهدونها الطريق فى دروب الصحراء الملتوية الغامضة ، بما لهم من خبرة ودراية بها ، حتى لا تضل أو تضيع بين مجاهلها ، وتحدثنا الأخبار عن دليلين كانت تستخدمهما القوافل المكية فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم : فرات بن حيان ، وقيس بن امرئ القيس [١] .

وليس من شك فى أن هؤلاء الأدلاء كانوا كثيرين ، نظراً لطبيعة البيئة الصحراوية التى تفرض على سالكها أن يكون على علم دقيق بطرقها ، ومواقع مياهها ، ومنازل الرعى التى تحتاج إليها الإبل فى طريقها ، ومواطن الأمن والخوف فيها ، إلى غير ذلك مما جعل العربى يفخر بمقدرته على هداية الركب « فى ديمومة فيها الدليل يعَضّ بالخمس » [٢] ، ومكابدته الخرقَ الذى :

ينسى الدليلُ به هدايته من هول ما يلقى من الرعب [٣]

ولم يكن هذا العلم الواسع ليتهيأ إلا لأولئك البدو الذين يعيشون فى قلب الصحراء ، ويضطرون تحت الظروف الجغرافية إلى التنقل من منزل إلى منزل ، أما أبناء المدن من العرب المستقرين فلم يكن يتاح لهم — أو لأكثرهم على الأقل — شىء من هذا ، فلم يكن هناك بدٌّ من استعانتهم بهؤلاء الأدلاء « جوابى الصحراء الذين لا يتعبون » كما يصفهم لامانس [٤] ، والذين لم تعد الصحراء أمامهم سرًّا مغلقاً ، وإلا كان إقدامهم على اختراقها مغامرة جنونية

---

(١) الواقدى : كتاب المغازى / ١٩٦ ، ٣٦ . وقد ورد ذكرهما فى شعر حسان بن ثابت (انظر ديوانه ط السعادة بالقاهرة / ٢٣٧ قصيدته الكافية) ، وقد وصف المكيون فرات بن حيان بأنه دليل بطرق الصحراء يسلكها وهو مغمض العين قد دوخها وسلكها (المغازى / ١٩٦) ، وقد طلبوا إليه فى أثناء الحصار الذى ضربه المسلمون على طريقهم التجارى إلى الشام أن يسلك بهم طريقاً إلى أسواق الشام دون أن يمروا بمنطقة المدينة (المصدر السابق / ١٩٦) .

(٢) الأغانى ١٦ / ٩٧ ، والتبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٤ / ١٥٥ .

(٣) الأصمعيات / ١٠ البيت ١٤ .

(٤) La Mecque à la Veille de l'Hégire, p. 182 = 278.

لا تؤمن عواقبها ، ويحدثنا ابن حبيب عن طائفة من « أدلاء العرب الذين انتهت إليهم الدلالة »[١] . ويذكر منهم واحداً « بلغ وبار ولم يبلغها غيره »[٢] .

وإلى جانب هؤلاء الأدلاء كانت القوافل التجارية تحتاج إلى « خفراء » أو « حماة » يؤمنون سبلها ، ويذودون عنها وحوش الصحراء[٣] ، ويدفعون عنها « ذؤبان العرب ، وصعاليك الأحياء ، وأصحاب الغارات ، وطلاب الطوائل » كما يعددهم الجاحظ فى بعض رسائله[٤] ، وذلك لأن طرق القوافل « كانت دائماً معرضة لغزو القبائل ، وسطو شذاذ الطرق وقطاعها ، الذين كانوا يعيشون فى الصحراء فساداً ، ويعيشون من السلب والنهب[٥] » ، وبخاصة فى تلك المناطق التى يصفها المؤرخون بأنها « لم تكن أرض مملكة ، وكان من عزّ فيها بز »[٦] ، أى تلك المناطق التى لم تكن فيها حكومة منظمة تضرب على أيدى العابثين ، وإنما كانت تدين بشريعة القوة ، ويسيطر عليها مذهب « الحق للقوة » ، ولهذا كان أصحاب القوافل مضطرين إلى استخدام جماعات كبيرة من الناس لحفارة بضائعهم والمحافظة عليها فى الطريق[٧] ، « وكانوا يسارعون إلى تقوية هذا الحرس عند اقترابهم من المسالك الخطرة ، بالقرب من تلك المفاوز المعرضة لغزوات الصعاليك ، أو عند ما يضطرون إلى اختراق المناطق التى تنزلها قبائل معاديةٌ أو مشتبهٌ فيها »[٨] ، كقبيلة هذيل التى كانت قبيلة تخشاها القوافل التجارية[٩] ، وكقبيلة فهم التى كانت

---

(١) المحبر /١٨٩ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق /١٨٩ .

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185.

(٤) رسالة فضل هاشم على عبد شمس /٧١ .

(٥) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام /١٦ .

(٦) تاريخ اليعقوبى ١/٢١٤ ، والمحبر /٢٦٧ .

(٧) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام /١٧ .

(٨) Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 185 - 281.
وانظر أيضاً مقالته عن "Mecca" فى : Ency. of Islam; p. 440.

(٩) Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 52 - 148.

برغم صغرها مشهورة بلصوصها[١] ، وكان هؤلاء الخفراء يقومون بهذا العمل نظير جُعْل يسمى « الخفارة »[٢] ، وسواء أكان هدايا أم نقداً[٣] فقد كان فى العادة جعلا كبيراً يتكافأ مع خطر العمل ، وكثرة تبعاته ، وكان هؤلاء الخفراء « يعيدون فى أكثر الأحيان هذا الجعل إذا ما عرض عارضٌ يحول دون أن تزكى خفارتهم ثمرتها »[٤] ، ومن الطبيعى أن يكون هؤلاء الخفراء من القبائل التى تمر بها القوافل لأن فى هذا ضماناً من تعرض هذه القبائل لهم ، أو قطعها الطريق عليهم ، وإرضاءً لكبرياء البدوى التى تجعله دائماً يتوقع « أن يُطلب ليتقدم الطريق أمام أى قافلة تخترق إقليمه الذى يعده ملكاً خاصاً لقبيلته »[٥] ، كما أن أفراد هذه القبائل أعرف — بطبيعة الحال — بمواطن الخطر فى مناطقهم ، وأدْرَى بسبل النجاة منها ، ويحدثنا الرواة أن كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز فى طريقه إلى سوق دُوَمة الجندل كان يتخفر بقريش ما دام فى بلاد مضر ، لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر ، ولا يهيجهم حليفٌ لمضرى ، فإذا أخذ طريق العراق تخفر ببنى عمرو بن مرثد من بنى قيس بن ثعلبة فتجيز ذلك له ربيعة كلها ، أما إذا مضى إلى مهرة ، وهى ليست بأرض مملكة ، فإنه كان يتخفر فيها ببنى مُحَارب من مهرة ، فإذا مضى إلى حضرموت حيث تقام سوق الرابية التى « لم يكن يصل إليها أحدٌ إلا بخفارة ، لأنها لم تكن أرض مملكة ، وكان من عز فيها بز صاحبه » فإن قريشاً كانت تتخفر ببنى آكل المرار ، وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة[٦] ، ومن هنا كان أصحاب القوافل يلجئون فى أكثر الأحيان إلى رؤساء القبائل ، أو إلى سيد

---

(١) Krenkow; Ency. of Islam, art. "Al-Shanfara".

(٢) Ency. of Islam; art, Arabia, p. 325.

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 179.

(٤) Ibid; pp. 179, 186.

(٥) Ibid; p. 185.

(٦) ابن حبيب : المحبر / ٢٦٤ — ٢٦٧ .

فيهم مطاع ، ليجبروا لهم قوافلهم ، كما كان يفعل النعمان مع لطائمه التى كان يبعث بها كل عام إلى سوق عكاظ ، فقد كان يجيرها له سيد مضر[١] ، ومن هنا أطلقوا على هذه الخفارة أيضاً الجوار[٢] ، وكان هذا الجوار « عملا مربحاً يسعى وراءه سادةُ الصحراء سعياً شديداً »[٣] . فقد كان أصحاب القوافل يشركونهم فى عملياتهم التجارية ، أو يقاسمونهم الأرباح ، أو يفتحون لهم حسابات جارية فى نوافذ مصارفهم ، على حد تعبير لامانس[٤] . ولم يكن يعدلُ سعيَ هؤلاء السادة وراء هذا الجوار إلا حرص أصحاب القوافل عليه ، حتى لقد كانوا يستميلونهم أحياناً بالمصاهرة[٥] ، ولعل أشهر قصص هذا الجوار قصة « إيلاف قريش » التى أشار إليها القرآن الكريم[٦] ، ويحدثنا العتبى ومحمد بن سلام عن قصة هذا الإيلاف حديثاً طويلا يرويه لنا القالى فى نوادره[٧] ، وكذلك يحدثنا الجاحظ فى بعض رسائله[٨] عن هذا الإيلاف حديثين آخرين ، وكيفما كان هذا الإيلاف فيبدو لى أن المسألة — فى أبسط صورها — ترجع إلى أن القرشيين قاموا بمفاوضات مع جيرانهم الذين تمر قوافلهم بديارهم ، من أجل تأمين سلامة هذه القوافل ، والإذن لها بالمرور ، وحصلوا على ترخيص من ملوك البلاد التى كانت لهم « متاجر » أو « وجوهاً » — كما

---

(١) الأغانى ١٩/٧٤ .

(٢) الأغانى ١٦/٩٩ سطر ١٢ .

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185

(٤) La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 — 274.

(٥) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام /١٧ .

(٦) سورة قريش ٢٧٤ ، والإيلاف : العهد والذمام (لسان العرب ، مادة ألف) وهو « عهود بينهم وبين الملوك » (الألوسى : روح المعانى ٣٠/٢٣٨) ويفسره الأزهرى بأنه « شبه الإجارة بالخفارة » (المصدر السابق /٢٤٠) ، وقد أجمع الرواة على أن أول من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف (رسالة فضل هاشم على عبد شمس من رسائل الجاحظ /٧٠) ، وفى حديث ابن عباس « وقد علمت قريش أن أول من أخذ لها الإيلاف هاشم » (لسان العرب مادة ألف) .

(٧) ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٨) رسالة فضل هاشم على عبد شمس /٧٠ ، ٧١ .

كانوا يسمونها[١] — ليدخلوا بتجاراتهم أسواق هذه البلاد ، ويذكر الجاحظ فى تفسير قوله تعالى « وآمنهم من خوف » فى قصة هذا الإيلاف أنه « خوفٌ مَنّ كان هؤلاء الإخوة (يعنى هاشما وإخوته) يمرون به من القبائل والأعداء وهم مغتربون ومعهم الأموال »[٢] .

وإلى جانب هذه الخفارة كان بدو القبائل يقومون أحياناً بدور الرسل أو « البريد » بين القوافل فى أثناء الطريق وبين المراكز التجارية التى خرجت منها أو التى تقصدها ، فإذا جد ما يستدعى اتصال القافلة بأحد هذه المراكز استأجر أصحابها بعض البدو من القبيلة التى يمرون بها ، وبعثوا به إلى حيث يريدون . ويحدثنا رواة السيرة أن أبا سفيان عندما تعرضت قافلة قريش لخطر مهاجمة المسلمين لها عند بدر « استأجر ضَمضَمَ بن عمرو الغفارى ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة »[٣] ، وكان هذا نظير عشرين مثقالا استأجره بها[٤] .

ولكن إلى جانب هذه العناصر الكادحة من بدو القبائل ، وجدت عناصر متمردة رأوا فى هذه القوافل الضخمة التى تنتقل بين أطراف الجزيرة محملة بثرواتها وكنوزها ، مخترقة البادية ، أرضَ الجوع والجدب والضيق ، صورةً من صور اختلال التوازن الاقتصادى ، ومثلا من أمثلة سوء توزيع الثروة ، فرفضوا أن يشاركوا فى هذه الأوضاع الاقتصادية المختلة ، ورأوا أن يقفوا منها موقفاً معادياً يعتمد على القوة فى كسب الرزق ، ففى مرور هذه القوافل فى مناطق الصحراء المقفرة الموحشة فرصةٌ صالحة للغارة والغزو ، وَصَيدٌ موات للسلب والنهب ، ورزقٌ ساقه الله إليهم يجدُر بهم أن يعتمدوا على قوتهم فى اغتصابه ، فاجتمعوا فى عصابات ، وانضم إليهم خلعاء القبائل ،

---

(١) انظر الأغانى ٩/٥٦ ، والمحبر /١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) رسالة فضل هاشم على عبد شمس /٧١ .
(٣) تاريخ الطبرى ٢/٢٧٠ .
(٤) الواقدى : كتاب المغازى /٢٢ .

وشذاذ الأحياء ، وصعاليك القبائل التى تنزل بعيداً عن طرق القوافل ، ووقفوا يتربصون بها فى مواسم مرورها ، ويقطعون عليها الطرق ، وينتهبون ما يقدرون على انتهابه، ليتقاسموه فيما بينهم ، ويشركوا فيه أحياناً أولئك الصعاليك الضعاف والمرضى والمسنين ممن حالت ظروفهم الخاصة دون المشاركة فى الغزو والغارة .

ومن الطبيعى أن يتربص هؤلاء المتمردون من الصعاليك بالقوافل الصغيرة ، لأنها غنيمة أيسر منالا ، وأضمن عاقبة ، ويحدثنا ابن قتيبة عن فاتكين التقيا « فسارا حتى لقيا رجلا من كندة فى تجارة أصابها من مسك وثياب وغير ذلك » فتربصا به ، حتى قتلاه واقتسما ماله[١] . ولهذا كان أصحاب القوافل يحرصون — إلى جانب ما كانوا يتخذونه من وسائل لسلامة قوافلهم — على أن تكون هذه القوافل كبيرة ضخمة كثيرة العدد ، وقد بلغت قافلة قريش التى تصدى لها المسلمون عند بدر ألف بعير[٢] ، ويبلغ عدد الرجال المرافقين لها قريباً من سبعين راكباً فى بعض الروايات[٣]. وثلاثين أو أربعين فى رواية أخرى[٤] ، ويصفها ابن إسحق بأنها « عير عظيمة »[٥] ، وكانت بعض قوافل قريش تصل إلى ألفين وخمسمائة بعير[٦] ، وكان مرافقو بعض هذه القوافل يبلغون أحياناً ثلاثمائة[٧] ، وقد رأى سترابو قافلة من قوافل العرب التجارية وشبهها بالجيش[٨] ، ويذكر لامانس أن هذه القوافل كانت تتميز عادة بضخامتها العددية[٩] .

ومع ذلك لم يحل هذا كله دون استمرار حركات المتمردين ضد هذه

---

(١) عيون الأخبار ، المجلد الأول ٢ / ١٨١ ، ١٨٢ .
(٢) الواقدى : المغازى / ٢٠ .
(٣) تاريخ الطبرى ٣ / ٢٦٧ .
(٤) المصدر السابق / ٢٧٠ .
(٥) المصدر نفسه / ٢٧٠ .
(٦) الواقدى : المغازى / ٢ .
(٧) المصدر السابق / ٧ .
(٨) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185. & Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274.
(٩) La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274.

القوافل ، أو « تعوير المتجر » كما كان يقول أهل مكة[١] ، ويحدثنا الرواة أن لطائم النعمان التى كان يبعث بها كل عام للتجارة إلى عكاظ كان يعترضها بعض بنى كنانة فينهبها[٢] ، وليس من شك فى لطائم النعمان كانت ضخمة كثيرة العدد والرجال .

ويبدو أن هذه الغارات — مهما تختلف أسبابها المباشرة باختلاف أصحابها — يرجع سببها العام إلى اختلال التوازن الاقتصادى فى ذلك المجتمع الذى يضع طائفة من أفراده بين نابين من فقر وجوع ، بينما يضع فى أيدى طائفة أخرى كنوز الثروة ومفاتيح الاقتصاد ، وهو لا يفصل بين هاتين الطبقتين ، ولا يجعل كلا منهما تعيش فى عالمها الخاص ، وإنما أباح لإحداهما أن تعرض ثراءها ، وتتيه بما أغدق عليها أمام أعين الطائفة الأخرى ، فتزيد من إحساسها بالفقر والجوع ، فكان من الطبيعى — إذا ما أتيحت لهذه الطائفة البائسة الفرصة لاغتصاب أى شىء من الطائفة الأخرى — أن تنهزها مؤمنة بأن هذا الاغتصاب حق ، ما دامت لا تبغى من ورائه سوى أن تعيش .

فإذا ما تركنا هذه القبائل التى كانت تنزل على الطرق التجارية ، ومضينا إلى داخل البادية العربية حيث تنزل القبائل بعيدةً عن مراكز النشاط التجارى ، فإننا نجد ثمة صوراً أخرى من صور الصراع بين الفقر والغنى .

والمجتمع البدوى من ناحيته الاقتصادية بسيط التكوين ، يتكون من طبقتين اقتصاديتين أساسيتين : طبقة أصحاب الإبل ، أو « أرباب المخائض » كما يسميهم بعض الشعراء[٣] ، وطبقة الصعاليك .

والناظر فى المجتمع البدوى يلاحظ لأول وهلة أن الفرق الاقتصادى بين هاتين الطبقتين كان بعيداً ، بقدر ما كان الفرق النفسى بينهما قريباً ، ومن

---

(١) الواقدى : المغازى / ١٩٦ .

(٢) ابن حبيب : المحبر / ١٩٦ .

(٣) يزيد بن الصعيل العقيلى فى الكامل للمبرد / ٥٩ .

هاتين الظاهرتين المتناقضتين : ظاهرة البعد الاقتصادى ، وظاهرة القرب النفسى نشأت ظاهرة الصعلكة .

وقد حصرت البيئة الجغرافية لأعراب البادية مواردهم الطبيعية فى المراعى ، ووقفت ظروفهم الحضارية بمجال عملهم عند الرعى ، ومن هنا انحصرت ثروتهم فى قطعان من الإبل والغنم والمعز . ومن الطبيعى أن تكون الإبل مقياس ثروتهم ، فهى خير ما فى هذه الثروة ، وقد سموها « النَّعَم »[١] ، لأنها النعمة الكبرى التى أنعم الله بها عليهم ، وقد كان من عوامل سقوط اعتبار الفرد فى الهيئة الاجتماعية أن تقوم المعز أو صغار الماشية فى حياته مقام الإبل[٢] ، وبينما كانت المعز مادة يشتق منها الساخرون من الهجائين عناصر سخريتهم ، كانت الإبل مادة يشتق منها المادحون عناصر مدحهم ، أما الغنم فليست بحيوان الصحراء الأول ، لشدة حاجتها إلى المراعى ، وقلة صبرها على الماء . ومن هنا كانت الإبل حيوان الصحراء الأول بلا منازع ، والدعامة التى تقوم عليها ثروة أبنائها ، وبحق سموها مالا[٣] ، لأنها — على حد التعبير الاقتصادى الحديث — « الرصيد » الذى تعتمد عليه « ميزانيتهم » ، و« العُمْلة » التى يتعاملون بها فى حياتهم ، « منها مهورُ نسائهم ، وديات دمائهم ، ورَهنُ ميسرهم »[٤] . ولهذا كانت كل قبيلة تتخذ « وَسْماً » خاصًّا لإبلها تميزها به[٥] ، كما تتخذ كل دولة فى العصر الحديث رسماً خاصًّا لنقدها .

وكانت ثروة الأفراد فى المجتمع البدوى تقاسُ بمقدار ما يملكون من الإبل ، « فكل ثرائهم كان يقوَّم بالإبل »[٦] ، وما أكثر ما نسمع عن أولئك

---

(١) لسان العرب مادة (نعم) .

(٢) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

(٣) « وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل » (لسان العرب ، مادة مول) ، ويقول الزمخشرى « مال العرب الإبل » (أساس البلاغة ، المادة نفسها) ، ويقول الشاعر « فلم أرمثل الإبل مالا لمقتن » (حماسة أبى تمام ٤/٦٧) .

(٤) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 247.

(٦) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

الذين كان لهم « نعم قد ملأ الأرض »[١] ، أو « نعم قد ملأ كل شيء »[٢] ، أو أولئك الذين كانوا يفقئون أعينَ فحلهم ليردوا عن إبلهم العين لأنها بلغت ألفاً[٣] ، أو ذلك الذى فقأ أعين عشرين بعيراً لأن إبله بلغت عشرين ألفاً ، والذى ربما ذبح فى أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة[٤] ، وفى الأخبار أن عتّاب بن ورقاء تكفل مرة بدفع تسع ديات[٥] ، وما أكثر ما نسمع عن ديات بلغت آلافاً من الإبل[٦] .

وإلى جانب هذه الطبقة من المالة الذين ملأ نعمهم الأرض ، وجدت طبقة أخرى من الصعاليك لا تكاد تملك شيئاً ، أو — كما يقول بعض شعرائها — « تجرّر حبلا ليس فيه بعير »[٧] . وقد رأينا فى الفصل الأول صورة لفقر هؤلاء الصعاليك ، وكيف أن بعضهم كان يملق حتى لا يبقى له شيء ، أو يفتقر فيخرج وقد آلى على نفسه ألا يرجع حتى يستغنى .

والأمر الذى لا شك فيه أن حياة هذه الطبقة الفقيرة من البدو كانت فى مستوى اقتصادى سيئ جداً ، حتى ليضطر بعضهم إلى قتل أولادهم خشية إملاق ، كما يحدثنا القرآن الكريم[٨] ، أو بيعهم ليستعينوا بأثمانهم على الحياة ، كما نرى فيما يرويه الرواة عن صَعصعة بن ناجية الذى كان يشترى الموءودات من آبائهن ، إذ يذكرون عنه أنه لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم ، قال له : « يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا فى الجاهلية ، أفينفعنى

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ١/٢٣٤ .
(٢) الأغانى ١٨/١٣٤ .
(٣) نقائض جرير والفرزدق ١/٢٣٤ .
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١/١٨٧ .
(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ٣/١٣٤ .
(٦) بلغت الدية التى دفعت لبنى ثعلبة بن سعد فى حرب داحس والغبراء ألف ناقة (نقائض جرير والفرزدق ١/١٠٥) وقد عرض بنو أسد على امرئ القيس بعد قتلهم أباه ألف بعير دية (الأغانى ١٩/٨٥) وبلغت الديات فى حرب عبس وذبيان ثلاثة آلاف بعير (الأغانى ١٠/٢٩٧)
(٧) الأحيمر السعدى فى المؤتلف والمختلف للآمدى /٣٦ .
(٨) الأنعام /١٥١ ، والإسراء /٣١ .

ذلك اليوم ؟ قال : وما عملك ؟ قال: أضللتُ ناقتين عُشَراوين ، فركبت جملا ومضيت فى بُغائهما ، فرُفع لى بيت حريدٌ ، فقصدته فإذا شيخ جالس بفناء الدار ، فسألته عن الناقتين ، فقال : ما نارهما ؟ قلت : ميسَمُ بنى دارم فقال : هما عندى وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك من مضر ، فجلستُ معه لتُخْرَجا إلىّ ، فإذا عجوزٌ قد خرجت من كسر البيت فقال لها : ما وضعتِ ؟ فإن كان سقباً شاركنا فى أموالنا ، وإن كانت حائلا وأدناها ، فقالت العجوز : وَضَعت أنثى ، فقلت : أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العربُ أولادها ؟ قلت : إنما أشترى منك حياتها ولا أشترى رقها ، قال : فبكم ؟ قلت: احتكم ، قال : بالناقتين والجمل . قلت : ذاك لك على أن يبلغنى الجمل وإياها ، قال : ففعل ، فآمنت بك يا رسول الله وقد صارت لى سنة فى العرب على أن أشترى كل موءودة بناقتين عشراوين وجمل ، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة فقد أنقذتها[1] . . . » ، وهى قصة تعطينا صورة واضحة عن الفرق الكبير بين هاتين الطبقتين الاقتصاديتين فى المجتمع البدوى ، وبين أولئك الذين يبيعون بناتهم بهذا الثمن البخس ، وذلك الذى يشترى ثمانين ومائتى موءودة ، ثم أرأيت إلى هذا اللون من ألوان « التجارة » عند هؤلاء الأعراب الفقراء ؟ بيع بناتهم نظير ناقتين وجمل راجين من وراء ذلك أن يتكون لهم رأس مال من الإبل يعينهم على الحياة ، ويساعدهم على رفع مستواهم الاقتصادى ، ولو كان ذلك على حساب أكبادهم التى تمشى على الأرض ، كما يقول شاعرهم القديم[2] .

والقصة بعد هذا تشير إلى نفسية أولئك الأعراب الفقراء ، وإحساسهم بما سميناه « القرب النفسى » بينهم وبين الأغنياء ، أرأيت إلى ذلك الأعرابى كيف يقول لذلك السيد إن ناقتيه اللتين أضلهما قد أحيا الله بهما قوماً من أهله ؟ كأنما يرى أن الأغنياء والفقراء أسرة واحدة ، وأن هذا الفرق الاقتصادى بينهما

(١) المبرد : الكامل /٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٢) حطان بن المعل ، فى حماسة أبى تمام ١/١٥٣ .

لا تأثير له فى « العامل المشترك » بينهما وهو كرم العنصر وطيب النِّجار ، ثم أرأيت إليه كيف يتساءل منكراً : وهل تبيع العرب أولادها ؟ وانظر كيف عبر بالعرب ولم يقل الناس ، كأنما يرى أن العرب جنس متميز لا يجرى عليهم ما يجرى على سائر الأجناس ، أولئك الذين يرى أولادهم رقيقاً يُشترى عند « أهله » من السادة الأغنياء ؟ وليس ينقض هذا الإحساسَ بالجنس أنه باع ابنته بعد ذلك ، فقد كان ذلك تحت ضغط الفاقة وإلحاح الحاجة ، ثم هو لم يفعل ذلك إلا بعد أن تعهد له هذا السيد بأنه لن يستعبدها ، وهو عذر — مهما يكن واهياً — يصور ذلك الإحساس النفسى الذى كان يسيطر على نفوس هؤلاء البدو ، فإن « الصفقة » لم تتم بين ذلك السيد وذلك الصعلوك إلا بعد هذه المحاولة من السيد لإرضاء نفس الصعلوك . ومهما يكن من أمر ذلك الأعرابى ، فالشىء الذى لا ريب فيه هو أن هؤلاء البدو — بقدر ما كانوا فى فقر مادى — كانوا على جانب كبير من الغنى النفسى . ومعنى هذا أن البدوى الفقير كان يرى نفسه مساوياً للسيد الغنى ، ويرفض أن يكون فقره سبباً فى النزول بنفسه أو تطامن كبريائه ، وأن الحياة إذا كانت قد ظلمته برغمه ، فإن عليه أن يعمل على أن يزيل عنه ذلك الظلم ، سالكاً فى ذلك أى سبيل ، والغاية تبرر الوسيلة .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن مجال العمل أمام هؤلاء البدو الفقراء كان ضيقاً جدًّا ، فهذه قضية مفروغ منها ، لأن أخلاف الحياة الاقتصادية الثلاثة : الزراعة والتجارة والصناعة لا تُدرُّ خيراً فوق رمال الصحراء القاحلة ، وفى وسط تلك الظروف الحضارية المتأخرة . ومن هنا لم يكن أمامهم إلا أن يعملوا لهؤلاء الأغنياء ، يقومون لهم بالرعى وخدمة الإبل ، أو يعينون نساء الحى ، كما يقول عروة بن الورد[1] ، فإذا رفضت نفوسهم القيام بهذه الأعمال لم يكن هناك بد — إبقاء على حياتهم — من الغزو والإغارة للسلب والنهب محاولين — كما يقول بعض الباحثين — « أن يزيلوا هذا الحيف المقدَّر بأسنة رماحهم ،

(١) انظر ديوانه /٧٧ .

معتقدين أن من الحلال دهم القوافل ، وسلب ما بأيديهم ، تعويضاً لهم عما لم تقدر أن تجود عليهم به أراضيهم القاحلة »[١] .

ولكن يجب أن نسجل أن حركات القبائل فى هذا الصراع بين الفقر والغنى كانت حركات قبلية ، تصدر عن القبيلة وتجرى برضاها ، أما حركات الصعاليك فقد كانت حركات فردية ، تصدر عن شخصياتهم المتمردة ، حتى لو أدى الأمر إلى أن يخلع الصعلوك نفسه من قبيلته فى سبيل تنفيذ حركته . وعلى هذا الأساس من التفسير الاقتصادى نستطيع أن نفهم كثيراً من حركات صعاليك العرب .

ومعنى هذا أن ثمة صراعاً كان يدور فى داخل البادية العربية بين طبقة المالة أصحاب المخائض والمتمردين من طبقة الصعاليك ، وأن مادة هذا الصراع التى دار حولها كانت الإبل عادةً ، لأنها الثروة الأساسية فى المجتمع البدوى ، فكان هؤلاء المتمردون يتربصون بقطعان الإبل ما أمكنهم الفرصة ، وينهبون منها ما يقدرون على نهبه ، أو يقتلون أصحابها أو رعاتها ويسوقون القطيع بأسره ، ولكن ليس معنى هذا أن الإبل كانت المادة الوحيدة التى دار حولها هذا الصراع ، فإن أيدى الصعاليك لم تكن تمتنع عن أية غنيمة تعرض لهم ، ففى أخبار تأبط شرا أنه خرج غازياً مع رجل يريدان بجيلة ، فأتى ناحية منهم « فقتل رجلا ثم استاق غنماً كثيرة »[٢] ، وفى أخبار عروة أنه سلب هذليًّا فرسه[٣] ، ولكن الأمر الذى نراه بكثرة تلفت النظر فى أخبار هؤلاء الصعاليك وأشعارهم تعرضهم للإبل ونهبها .

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب/٨٢ .
(٢) الأغانى ١٨/٢١٣ .
(٣) الأغانى ٣/٨٤ .